Fuerbach From the demolition of theology to the establishment of anthropological religion

Dr. Bashir Jassim Mohammed
Faculty of Political Science / University of Mustansiriya
basheer.g82@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v3i144.4024

Abstract:
In this research, we try to address the religious position from the point of view of this philosopher, indicating his position rejecting religion in general as well as contemplative philosophies, especially the philosophy of Hegel, considering that theology and contemplative philosophies all departed from man and adopted abstract ideas in their research. Feuerbach found that the real future of philosophy is the real reality in kind represented by man, and he also showed that man with his long history fell into alienation because of the illusion that there is a distinct and differentiated God. Man referred all his attributes to that God, and the truth is that God is man himself and we should not worship God apart from us, because all this is purely an illusion produced by man, and therefore man must regain his essence which he threw up and realize himself about its truth, because the secret of theology is anthropology.
Keywords: (Anthropology, Religion, Religious alienation, Theology, Contemplative philosophies)

فويرباخ من هدم اللاهوت إلى تأسيس الدين الأنثروبولوجي

د. بشير جاسم محمد
كلية العلوم السياسية/ الجامعة المستنصرية

(مُلَخَّصُ البَحث)

نحاول في هذا البحث ان نتطرق إلى الموقف الديني من وجهة نظر هذا الفيلسوف، مبينين موقفه الرافض للدين بصورة عامة وكذلك للفلسفات التأملية لا سيما فلسفة هيجل، باعتبار أن اللاهوت والفلسفات التأملية كلها انصرفت عن الإنسان واعتمدت في بحثها الأفكار المجردة، فوجد فويرباخ أن المستقبل الحقيقي للفلسفة هو الواقع العيني متمثلاً بالإنسان، كما بين أن الإنسان بتاريخه الطويل وقع في الإغتراب بسبب توهمه وجود إلهاً متميزاً ومفارقاً عنه، فأحال الإنسان كل صفاته إلى ذلك الإله، والحقيقة هي أن الإله هو الإنسان ذاته فلا ينبغي أن نعبد إلها مفارقاً عنا؛ لأن كل ذلك محض وهم أنتجه الإنسان، فينبغي على الإنسان أن يستعيد جوهره الذي قذفه إلى الأعلى ويدرك نفسه على حقيقتها؛ لأن سر اللاهوت هو الأنثروبولوجيا.

الكلمات المفتاحية: (الانثروبولوجيا، الدين، الاغتراب الديني، اللاهوت، الفلسفات التأملية)

المقدمة

يعد العصر الحديث علامة فارقة في تاريخ الفكر الفلسفي، لاسيما أنه جاء على أنقاض العصر الوسيط محملاً بأفكار مغايرة عما كان متعارف عليه، فقد كان هم الفلسفات السابقة هو البحث عن أصل الوجود، وما هي الأسس التي ننطلق منها لمعرفة الخالق، أما هذا العصر فمنطلقاته تختلف؛ لإنه اعتمد على الإنسان وما يمتلك من معارف وقدرات للكشف عن الحقائق، ومن خلال ذلك برز اتجاهين هما الاتجاه العقلي والاتجاه التجريبي، والأهم في هذين الإتجاهين أنهما عولا على الإنسان وقدراته، فبات الإنسان هو محور الإنتباه لهذا العصر، أو كما يقال من سمات العصر الأوربي الحديث هو (الإنسانية)، لاسيما في ألمانيا التي قدمت لنا ثورات في الفكر الإنساني عن طريق مجموعة من الفلاسفة قد يكونوا من أعظم الفلاسفة في التاريخ، فهل يستطيع قراء الفلسفة أن يحجبوا بأنظارهم عن (كانط أو هيجل أو ماركس أو نيتشه)؟ وهل غاب أثر هؤلاء الفلاسفة عن المدارس الفلسفية المعاصرة؟ بالطبع لا. ولكن من غير الممكن أن نختزل المانيا بهؤلاء الفلاسفة فقط، بل هناك آخرون رسموا ملامح الفلسفة الألمانية في العصر الحديث، فقد كانت إسهاماتهم لا تقل أهمية عن أسهامات الذين ذكرناهم أعلاه، والمشكلة التي حالت دون معرفتهم بالقدر الذي عرفناه عن الآخرين هو وصول ترجماتهم والدراسة عنهم متأخرة في عالمنا العربي أو أن أغلب قراء الفلسفة كانوا متأثرين بفلاسفة آخرين، فمثلاً فويرباخ الذي هو محور بحثنا لم يتعرف عليه العالم العربي بصورة واضحة إلا من خلال ترجمات ودراسات الدكتور (احمد عبد الحليم عطية) حتى أن نصوصه الأصلية مثل (جوهر المسحية) و(جوهر الإيمان بحسب مارتن لوثر) و(محاضرات في جوهر الدين) لم تترجم إلا في السنوات الخمس الأخيرة، ولذلك عزمنا في الكتابة عن هذا الفيلسوف الذي قدم جهداً كبيراً في فلسفة الدين، إذ أن جل كتاباته تعني بالقضية الدينية، وهذا يعطيه الأحقية أن يكون من أهم الفلاسفة الذين تناولوا القضية الدينية، بل أكثرهم جرأة في نقده للدين، لا سيما الدين المسيحي، وما يؤكد على ذلك هو فصله من سلك التدريس نتيجة تأليفه مقالاً عنوانه (أفكار عن الخلود والموت) الذي قدم فيه نقداً لاذعاً على الدين المسيحي، وما كتابيه (جوهر المسيحية)، و(جوهر الإيمان بحسب مارتن لوثر) إلا تعبيراً آخراً عن موقفه السلبي من الدين المسيحي.

إن ما قدمه فويرباخ من فلسفة دينية يستدعي كل مشتغل بالفلسفة أن يقف عند هذا الفيلسوف؛ لإن الفلسفة الألمانية لم تتعود على طروحات جريئة تصدر لفيلسوف من قبل، وقد ينبري رأياً يقول أن (مارتن لوثر) قد سبق فويرباخ بنقده للدين، وكذلك (كانط) في كتابه: (الدين في حدود مجرد العقل) قدم نقداً واضحاً للديانة المسيحية.

إن إجابتنا عن ذلك أن لوثر يختلف عن فويرباخ، كونه كان قساً وليس فيلسوفاً، فنقد المسيحية من الداخل معلقاً على أخطاء ارتكبتها المسيحية، مثل (صكوك الغفران وكذلك الوساطة بين الإله والإنسان)، دون رفض المسيحية أو دحضها كدين، مؤسساً بذلك مذهباً جديداً يراه الاقوم للديانة المسيحية، أما كانط وإن كان قد قدم نقداً اعاب فيه كل العقائد الدينية ومن ضمنها المسيحية، ووصفها بأنها لا تستحق كلمة ديانة، لكننا نجده مؤسساً ومؤكداً خلف الستار على أحقية الدين المسيحي، باعتباره الدين الوحيد الذي جاء بوصايا أخلاقية، بإمكانه أن يكون الدين الكوني الوحيد، فهو وأن يحاول أن سلب الكنيسة سلطتها الكهنوتية، إلا أنه يؤكد بأن المسيحية دين حقيقي ينبغي على كل فرد إتباعه. فهل نجد عند لوثر وكانط نفس الجرأة التي جاء بها فويرباخ؟ بالطبع كلا، لقد إنفرد فويرباخ وحده بذلك، ويمكن القول هو نقطة التحول في فلسفة الدين الألمانية، فهو أعطى جرعة الرفض للذين أتوا بعده لا سيما (ماركس وإنجلز ونيتشه).

إن محاولات فويرباخ الفلسفية هي إنموذجاً لتكريس النزعة الإنسانية في فلسفته، فموقفه الديني لا يعني أنه يهاجم الدين كدين، وإنما يريد بذلك تقويضه من أجل إرجاع الإنسان لذاته التي سلبت من قبل، فالفلسفات جميعها كانت تعني باللاهوت ولا تنظر إلى الإنسان، وهذا ما أثار حفيظة هذا الفيلسوف منذ دراسته الأولى، حتى انه قال لإبيه في رسالة أرسلها (أود أن أعانق الإنسان في كماله)، ولذلك يعتقد فويرباخ أن الإنسان هو مركز كل شيء، وهو السر الحقيقي للاهوت، فالطبيعة الإلهية عنده هي الطبيعة البشرية، ولذلك أراد فويرباخ خلاص الإنسان من الهيمنة اللاهوتية وتأسيس قواعد الدين الأنثروبولوجي الذي يعبر عن نشاط إنساني خالص، فتكون عنده نقطة الأنطلاق الفعلية لفلسفته هو الوجود العيني لا المجرد.

إن مستقبل الفلسفة عنده هو إزالة المسيحية؛ لإن المسيحية اهتمت بالخوارق ولم تهتم بالإنسان، وبالتالي هي سلبت الجوهر الإنساني من الإنسان لأجل الإله ووضعته في دائرة العجز أمام آلهة هي القادرة على كل شيء، فيحاول فويرباخ أن يعيد للإنسان جوهره من خلال تبيان وهمية الدين بصورة عامة؛ لأن الإنسان هو من صنع الإله من خلال مخيلته، وشعر بأنه يجب أن ينساق لدين ما، فالحقيقة واضحة هي أن جوهر الدين هو الإنسان ذاته، وجوهر الإله أيضاً هو جوهر إنساني، وبالتالي دخل الإنسان في حالة من الإغتراب الديني بفعل الزلزال الذي حصل في كيانه فقدم الوهم على الحقيقة واضعاً إلهاً متميزاً عنه يمتلك كل الصفات التي ينبغي على الإنسان أن يحوزها جميعاً، وللخلاص من هذا الإغتراب يحيل فويرباخ الدين إلى الإنسان باعتبار الإنسان هو الإله الذي يعبد، لإن كل تصورات الإله هي تصورات إنسانية، وخير مثال على ذلك هو الدين المسيحي الذي اعطى الصفة الإنسانية

للإله ، فمحاولات فويرباخ الدينية هي من أجل انقاذ الجانب الإنساني للدين، وما ان يدرك الإنسان ذاته الإله الحقيقي، فإنه سيستطيع الإستغناء عن إله المسيحية او عن الروح المطلق

أولاً: فويرباخ وهيجل

عند الحديث عن فويرباخ لا بد لنا من الإشارة إلى الجذور الهيجلية لهذا الفيلسوف، فلا شك أن هيجل قد ألهم فويرباخ وفتح له المجال في فلسفة الدين، على الرغم من أن هناك عدم توافق واضح بين هذين الفيلسوفين، حتى أن فويرباخ الذي كان كثير الشغف بدراسة الدين واللاهوت، أقلع عن الدراسة في جامعة هيدلبرغ، بسبب رفضه لطروحات هيجل التأملية، وانتقاده أيضاً الطبيعة المثالية للجدل الهيجلي، كما ورفض كل تيار يتبنى التوفيق بين الفلسفة والدين، فأعلن فويرباخ المادية والدفاع عنها أمام التأملية، وأعد كتاباً كاملاً لنقد فلسفة هيجل التأملية، عنوانه: "دراسة في نقد فلسفة هيجل"، نجد في هذا الكتاب اقتراب فويرباخ من فلسفة هيجل بصورة منتظمة، حتى أنه تابع التحليل الهيجلي في خطوطه الأساسية التي تخص المسألة الدينية، وهذا يعني أن فويرباخ على الرغم من نقده للفلسفة الهيجلية، يبدو تأثير هيجل واضح عليه، وهو أمر بان جلياً ليس فقط على هذا الفيلسوف، وإنما على أغلب الفلسفات والفلاسفة، كون فلسفة هيجل سادت جميع الفلسفات السابقة لها، حتى أنها أضحت مدعومة من الدولة في بروسيا، فقيل أنها الفلسفة الرسمية على جميع الصعد السياسية والثقافية والإجتماعية...الخ. فعلى الرغم من عدم توافق فويرباخ مع أفكار هيجل، إلا أنه يرى بأن هيجل هو الوحيد الذي شعر به الأستاذ الحقيقي، كونه قد أوصله إلى الوعي الذاتي ووعي العالم، ولذلك يعتقد فويرباخ أن هيجل والده الروحي مثلما برلين هي موطنه، فالعامين الذين درس فيهما عند هيجل هما من جعل قلب فويرباخ ورأسه يستويان، فعرف ما يريد فعله وما يجب عليه أن يفعله. (عطية، ٢٠١٩، ص٦٢)

ولكن سرعان ما بدأ هذا التأثير يتضاءل ويتحول إلى هجوم على فلسفة هيجل، فقد رأى بأن هذا الفيلسوف قد أساء فهم الفكر وجرده من كل واقع، إذ أن من الخطأ أن تكون الحقيقة كامنة في الفكر فقط؛ لإن فويرباخ يعتقد أن كل تأمل وتفكير يتجاوز الإنسان والطبيعة عبث لا نفع فيه، فالحقيقة تنبثق من الإنسان وتكون من خلال ما تمدنا الحواس من معارف. (خليفة، ٢٠٠٩، ص٩٥) وهذا ما يؤكد رسالته التي أرسلها إلى والده عندما قرر أن يترك دراسة اللاهوت؛ لإنه لم يجد ما يشبع عقله وما يحتاج إليه، فهيجل وطلابه كانوا يولون الأهمية للفلسفة التأملية واللاهوت وينصرفون عن الإنسان، فيقول لوالده في رسالته: " لقد هجرت اللاهوت ليس عبثاً أو إستهتاراً أو كرهاً ولكن لإنه لا يشبعني، لا يعطيني ما أحتاج إليه ولا أستطيع الإستغناء عنه. أود أن أضم الطبيعة إلى قلبي، تلك التي يرتد عن أعماقها

رجال اللاهوت الجبناء، أود أن أعانق الإنسان، الإنسان في كماله" . (فويرباخ، ١٩٩٩، ص ٣٦) يكشف لنا هذا النص أن فويرباخ لم يحرر نفسه من هيجل فقط، وإنما أشاح بوجهه عن كل فلسفة تأملية؛ لإن دراسة الطبيعة عنده هي العلم الوحيد الصحيح، وإن الإنسان هو الأساس الذي تستند عليه كل أفكاره في السياسة والتاريخ والدين.

إذن فويرباخ يخيب ظنه مرة أخرى بعدما خاب نتيجة لضروب التوفيق التي سعى إليها لاهوتيون من أمثال (شليرماخر) و (كارل دوب) و(هـ.ج. بولس) الذين قدموا محاضرات عن تاريخ الكنيسة محاولين بذلك عقلنة اللاهوت، فرأى فويرباخ إن هذه المحاضرات ما هي إلا سفسطة، فتوقف عن حضورها وانصرف متوجهاً إلى برلين، التي لم يجد فيها عند زعيم المثالية الألمانية حلاً مرضياً لهذه التوترات، فكلما كان يستمع فويرباخ لهيجل عن تعيينات الفكرة المطلقة في الواقع الإنساني، يبدو فيه التعجب بسبب التوفيق بين النظرة المثالية للإنسان، وبين ما تقره البيولوجيا والفيزياء في الإنسان، ونتيجة ذلك التعجب تولد عند فويرباخ تشككاً عميقاً، مما أدى إلى وضع فلسفة يرى فيها فويرباخ أكثر تماشياً مع الروح العلمية في القرن التاسع عشر، هذه الفلسفة شديدة الإنتقاد للاهوت المسيحي والفلسفة الهيجلية. (كولينز، ١٩٩٨، ص٣٣٩)

على الرغم من نقودات فويرباخ لهيجل، يبقى زعيم المثالية الألمانية بالنسبة لفويرباخ أول من نظر لفلسفة الدين، كما أن الجذور الهيجلية إمتدت لتؤثر بموقف فويرباخ الديني، لا سيما في شذرات هيجل المبكرة التي تتيح لنا التعرف على ما قدمه فويرباخ من مواقف دينية، لا سيما بما يسمى بالوعي المسلوب في الإنسانية، إذ يرى هيجل في (شذرة توبنجن)، . الكتابات اللاهوتية المبكرة . " لا يجب أن يقتصر الدين على العقائد الجامدة، ولا يجوز تعلمه من الكتب، ولا يجب أن يكون لاهوتياً، بل بالأحرى أن يكون قوة حية تزدهر في الحياة الواقعية للشعب، أي في عاداته وتقاليده وأعماله واحتفالاته. يجب أن لا يكون الدين آخروياً [متعلق بالآخرة]، بل دنيوياً إنسانياً وعليه أن يمجد الفرح والحياة الأرضية، لا الألم والعذاب وجحيم الحياة الأخرى" .(عطية، ١٩٨٩، ص١٣٩)

من خلال النص السابق يمكننا القول أن هيجل يقدم لنا موقفاً أصيلاً، فهو قد اولى للإنسان الأهمية، ويجب على الدين ان يكون ملاصقاً للواقع، ولا يكون حبيساً للأزمان الغابرة والعقائد الجامدة التي لا تساهم في تطور المجتمعات، بل تجعلهم في مرحلة متأخرة لا تواكب التطور في الحضارة الإنسانية، وعليه يرى هيجل بأن الأديان في جوهرها شعبية، وليست مقتصرة على طبقة معينة، أو نتعلمها عن طريق نصوص معينة، أو عن طريق منظرين لها يؤكدون على الآخرة ولا يولون أي أهمية للحياة الدنيا، فربط هيجل الدين بالحياة يجعله أكثر واقعية؛ لإنه في هذا النص يمجد الإنسان، وهذا ما أثر فعلاً بمواقف فويرباخ

الدينية. لقد كان هيجل يميز في النص أعلاه بين نوعين من الدين: **(الدين الموضوعي)**، وهو اللاهوت، باعتباره نسقاً من الحقائق، و**(الدين الذاتي)**، وهو الجانب الحي الذي صار حياة دينية، وهو متعلق في القلب، ويتصل بالعواطف والمشاعر، فحين يتحدث هيجل عن الدين، يقصد بذلك الدين الذاتي، الذي يعد البداية التي أنطلق منها فويرباخ في تفسيره للدين، بل أن الهيجليين وجدوا هذا الفهم على أنه "إنجيل تأليه الإنسان" .(فويرباخ، ١٩٩٩،ص ١٣)

ولكن نجد اليمين الهيجلي عارضوا فهم فويرباخ السيء الذي ألحقه بفلسفة الدين عند هيجل؛ لإن هيجل لم يرفض الله في فلسفته، وإنما كان يرى بأن الإنسان موجود لوجود الله. فمثلاً يرى ميور أن هيجل يقدم لنا نظرة صوفية، فالمشكلة التي تواجهه هي مشكلة وحدة الإنسان والله، وهي الوحدة التي نادى بها كل من (يعقوب بوهمه) و(السيد أيكهارت)، الذي اعتقد أن عين الله وعيننا واحدة، وإذا لم يوجد الله فأنني أيضاً لا أوجد، وهذا هو المعنى الهيجلي، حتى أننا نجد الفيلسوف (روجيه غارودي)، يتفق مع هذا الرأي بأن صلة الله بالإنسان عند هيجل هي الموضوع الأساسي للدين، والله في نظر هيجل لا يمكن أن يكون متعالياً خارج الوعي الإنساني. (فويرباخ، ١٩٩٩،ص١٤-١٥)

على الرغم من الأثر الهيجلي على فويرباخ، ومحاولة البعض في التقريب بينه وبين هيجل في موضوعة الدين، لا سيما حول الصلة بين الله والإنسان، باعتبار الدين عند هيجل في شذراته الأولى التي كتبها، هو أعلى صورة من صور التعبير عن الوعي الذاتي وهو الأمر نفسه عند فويرباخ، إلا أننا نجد تلميذ هيجل قلب موازين المعادلة الهيجلية، فجعل المادي يسبق المثالي، محاولاً بذلك تحرير الإنسان من النزعة المثالية، وتحريره من السلطة اللاهوتية، معلنا بذلك إنتصار للمادية، التي من خلالها يؤسس فويرباخ إلى دين أنثروبولوجي.

إن التحول الأنثروبولوجي عند فويرباخ هو "العودة إلى الطبيعة والإنسان، وهذا الهدف يتحقق بنقد مزدوج لكل من المثالية واللاهوت". (عطية، ١٩٨٩، ص٢٠١)، وبذلك نستطيع القول أن فويرباخ آمن بالطبيعة الإنسانية، إذ يرى أن سر الثيولوجيا الأنثروبولوجيا، وإن الطبيعة الإلهية التي تذكرها كل الأديان ما هي إلا طبيعة بشرية. وبالتالي نحن أمام ثلاث محاور حددت فلسفة فويرباخ هي:

١. تخليص الإنسان من عبودية المثالية الهيجيلية.
٢. تحرير الإنسان من هيمنة اللاهوت.
٣. تأسيس قواعد الدين الأنثروبولوجي.

الدين الذي ينوي تأسيسه فويرباخ، يعبر عن نشاط إنساني خالص، فهو يرى أن الإنسان مركز العالم، وما الروح المطلق سوى شبح يطارد الفلسفة الهيجيلية، فعمل فويرباخ على توجيه الأنثروبولوجيا ضد اللاهوت المسيحي، فالله المسيحي حسب رأيه هو جوهر الإنسان نفسه. (نصراوي، ٢٠١٦، ص١٤)

إذن تنطلق هذه الفلسفة من الوجود العيني لا الوجود المجرد، ولذلك كانت نقطة بدايته، هي حالة الإنسان الفعلية في الطبيعة، وإن الحلول المثالية باطلة وليست لها صحة، فمستقبل الفلسفة عنده يقوم على شرط إزالة إله المسيحية والمطلق الهيجلي والتأكيد على النزعة الإنسانية والنزعة الطبيعية.

ثانياً: ماهية الدين

تعد قضية الدين عند فويرباخ النقطة المحورية في جل أعماله، فهو القائل إن أعمالي كلها لها هدف واحد وموضوع واحد هو (الدين)، لذلك يعد هذا الفيلسوف من أبرز الفلاسفة المحدثين الذين قدموا نقداً للدين، لا سيما أنه قد تجاوز الشباب الهيجليين الذين نقدوا الإنجيل واللاهوت، فهو قد اعتبر الدين اغتراباً وتموضعاً لماهية الإنسان، وبالتالي فإن موضوعه المباشر هو ماهية الإنسان، ويكون الكشف عن هذه الماهية من خلال الفلسفة، فعمد فويرباخ إلى إحداث ثورة عنيفة ضد الفلسفة التأملية واللاهوت كونهما ساهما باغتراب الإنسان. يرى أحمد عبد الحليم عطية أن فويرباخ كان الوحيد من الفلاسفة المحدثين شغل نفسه بمشكلة اللاهوت، فقد كانت إهتماماته تضعه بمرتبة أعلى من معظم الفلاسفة المحدثين، وهو ما إتضح من خلال كتاباته عن الإنجيل وحماة الكنيسة، ولذلك هو من ضمن القلة الذين تحدثوا وكتبوا عن الدين واللاهوت بشكل راق. (عطية، ١٩٨٩، ص٢٥٥)

يبدو لنا موقف احمد عبد الحليم عطية مبالغ فيه بعض الشيء، لإن فويرباخ ليس الوحيد في عصره الأكثر إنشغالاً بمشكلة الدين بصورة عامة، وإنما كان هناك فلاسفة محدثون آخرون قدموا أفكاراً ومؤلفات تخص موقفهم من الدين، على سبيل المثال الفيلسوف الألماني (كانط)، فهو قد سبق فويرباخ وكتب الكثير عن مشكلة اللاهوت وإثبات الخالق من عدمه، وكذلك ألف كتاباً مهماً حول مسألة الدين عنوانه: (الدين في حدود مجرد العقل)، كما لا يفتنا بأن هناك فلاسفة آخرون أمثال ماركس ونيتشه اللذان كانا لهم مواقف كثيرة من الدين، فالأولى على احمد عبد الحليم عطية أن يعد فويرباخ من أحد أكثر الفلاسفة الذين إهتموا بهذا المجال، وليس الوحيد في ذلك.

يرى فويرباخ أن الدين هو الذي يهتم بالمصير الإنساني، وليس ذلك الدين الذي يقوم على الخوارق، فمثل هكذا دين يكون وهمي، كونه يسلب الجوهر الإنساني من الإنسان لإجل الله. (كورنروإنجلز، ١٩٧٥، ص٢٥٥) ويعتقد أن المظاهر الدينية هي أيضاً تكشف

النقاب عن جوهر الدين، فالإنسان بصفة عامة يلجأ إلى الدين ويتضرع إلى الله فقط عندما يمر بمحنة معينة، وهذا يعني أن الإنسان عند المحن يدرك عدم قدرته على تحقيق رغباته، فيعتقد وهو العاجز أن الآلهة قادرة على تحقيق رغباته وأمانيه، بمعنى أنها تطيع قوانين قلب الإنسان، (فويرباخ، ١٩٩٩،ص٧٨) ويرى فويرباخ أن الشعور هو العضو الأساسي للدين، وبالتالي فأن جوهر الإله لا يعبر عن شيء سوى جوهر الشعور، وهذا يعني أن الشعور هو لسان حال الإلهي، ولذلك فأن الشعور هو الأنبل والأكثر إمتيازاً، (أي الإلهي) في الإنسان، فالشعور نفسه إلهياً؛ لإنه بإمكانه تصور الإلهي، إذن الإلهي لا يمكن معرفته إلا من خلال ما هو في ذاته إلهي " لا يمكن معرفة الله إلا من خلال نفسه". (فويرباخ، ٢٠١٦، ص٥٩)

نستنتج من ما سبق أن فويرباخ يحاول أن يصل بنا إلى تأليه الإنسان، فلو كان هناك إلهاً خفياً معزولاً عن الإنسان ومتمايز عنه، فلا يمكن إدراكه ومعرفته، وبالتالي فإن وجهة نظر هذا الفيلسوف ترى أن الإنسان قد عبد نفسه منذ الطفولة، ويشعر بأن هناك دين يجب أن ينساق إليه، مما أدى إلى عدم معرفة أن جوهر الدين هو الإنسان ذاته، وما دام جوهر الشعور إنساني، فإن جوهر الإله أيضاً إنساني.

يقول فويرباخ" إن وعي الإله هو الوعي الذاتي للإنسان، معرفة الإله هي المعرفة الذاتية للإنسان. فكرة الإنسان عن نفسه هي فكرته عن الإله، تماماً كما أن فكرته عن الإله هي فكرته عن نفسه... الإله هو مظهر من مظاهر الطبيعة الداخلية للإنسان، ذاته المعبر عنها؛ الدين هو إماطة اللثام الأعمق. الإعتراف العلني باسرار حبه". (فويرباخ، ٢٠١٦، ص٦٤-٦٥)

ثالثاً: موقف فويرباخ من المسيحية

بعد ملاحظة فويرباخ الموقف الرافض لأديان من أديان الأخرى، وقناعة دين معين بأحقيته وعدم أحقية الدين الآخر، كون كل دين يجد نفسه الممثل الحقيقي للإله، وجد أن مثل هكذا فكر يعد وهماً ولا طائل منه؛ لإن كل الأديان هي نتاجات إنسانية، ومن ثمة فأن كل تقدم في الدين هو تعميق معرفة الإنسان لنفسه، ولكن كل دين يعتقد بأن الأديان السابقة عليه وثنية، في حين يجد نفسه مستثنى عن مثل هكذا تصور، فهو لا يؤدي الغرض نفسه عند الأديان الأخرى؛ لإن من الطبيعي أن يكون الدين اللاحق مختلفاً في الغرض والمضمون، كونه استبدل مضمون الأديان السابقة، وهكذا كل دين سيرمي سهام إتهامه على الأديان السابقة، ومن هنا يصرح فويرباخ من الواجب علينا أن نظهر التناقض الذي تراه الأديان بين الله والبشر ماهو إلا تناقضاً وهمياً، فالتناقض موجود بين كينونة الإنسان الجوهرية وكينونته الفردية، ونتيجة ذلك فإن غرض الديانة المسيحية ومضمونها بشريان بالكامل، ولا يوجد هناك إله متمايز عن البشر. (فويرباخ، ٢٠١٦، ص٦٤-٦٥)

نستطيع القول إن الدين، لاسيما(الدين المسيحي) حسب وجهة نظر هذا الفيلسوف، هو التعبير الحقيقي لإرتباط الإنسان بنفسه، فعندما يعتنق الإنسان دين معين، يشعر بإنه إرتبط بكينونة أخرى تمتاز عنه (الإله)، ولكن الحقيقة أن الإنسان إرتبط بكينونته، بجوهره المجرد عن فرديته وشخصيته المادية، ولذلك فإن شعور الإرتباط بآخر متمايز عنه هو شعور خاطئ؛ لإن الإله نفسه هو الإنسان، والتمايز الذي صنعه بنفسه وقذفه إلى الأعلى ينبغي أن يستعيده لنفسه كي لا يغترب وينصهر بذات أخرى غير حقيقية.

تجدر الإشارة أن كتاب: (جوهر المسيحية) يقصد به فويرباخ جوهر الإنسان؛ لإن الدين عنده بما في ذلك المسيحية هو الوعي باللامتناهي، وماهية الإنسان ليست متناهية ومحدودة، بل أنها لا متناهية، إنها الماهية النوعية، ووعي هذه الماهية محدد بالطبيعة الإنسانية وحدها، وهذه الماهية تمثل مجموع الكمالات الإنسانية،(ديب، ١٩٩٤، ص١٨٧) فالكمالات أو الصفات الخاصة بالإله باعتبارها محمولات لحاملها مثل(العدل والخير والحب)، وقد بينا هي تحديدات الإنسان، فحاملها أيضاً هو كينونة الإنسان، وهذه المحمولات هي وحدها من يؤسس عليها جوهر الدين، والتي تجعل فيها موضوعية الطبيعة الإلهية للدين، فمن خلال هذه المحمولات نتعرف على سبيل المثال إن الإله شخص، وإنه المشرع الأخلاقي، أب البشر، القدوس والعادل والرحيم. إن هذه التحديدات الشخصية التي وضعت للإله هي نتاجات بشرية محضة، ونتيجة لذلك تكون علاقة الإنسان مع الإله في الدين هو علاقته بكينونته الخاصة.(فويرباخ، ٢٠١٦، ص٧٧)

وعلى هذا النحو نجد إهتمام فويرباخ بالديانة المسيحية أكثر من غيرها من الديانات، كون صيرورة الله إلى إنسان المسيح هي نقطة انطلاق هذه الديانة، وهذا يعني أن اختيار فويرباخ للمسيحية ليس كونها تفوق الديانات الأخرى، وإنما وجد فيها الديانة التي توضح الصفة الإنسانية لله، ففي هذه الديانة تجد الله مثلما البشر يتألم، وكذلك يغفر أخطاء الناس، وهذا هو حال البشر أيضاً، فهم يصفحون عن الآخرين، وكذلك تجد في هذه الديانة إن الله قد تحمل الألم نيابة عن البشر، وتمثل ذلك في شخص المسيح (الإبن). (الحيدري، سنة٢٠١٣، ص٢٠٠)

يرى فويرباخ في كتابه: (جوهر المسيحية)، إن الوعي هو البذرة الأولى لتدين الإنسان، وقد بين ذلك من خلال وضع مقارنة بين الإنسان والحيوان، فالإختلاف الجوهري هو من يحدد تدين الإنسان وامتناع التدين عند الحيوان؛ لإن الإنسان وحده من يمتلك الوعي، كما يملك حياة داخلية وأخرى خارجية، وهذا ما لا يوجد عند الحيوان أيضاً، فحياته الداخلية واحدة مع حياته الخارجية، والإنسان يربط نفسه بنوعه في حياته الداخلية، هو يفكر ويدخل بحوار مع نفسه، أما الحيوان فهو لا يؤدي أي وظيفة خاصة بنوعه دون الوجود لفرد آخر

متخارج عن ذاته، الإنسان بالعكس، فهو يستطيع تأدية وظائف الفكر والكلام الخاصة بنوعه بمعزل عن الفرد الآخر، إن الإنسان يكون في ذاته(أنا)و(أنت) على حد سواء، فهو يستطيع وضع نفسه مكان الآخر؛ لإن نوعه شكل كينونته الأساسي.(فويرباخ، ٢٠١٦، ص٥١-٥٢) وهذه الكينونة تشكل أساس الدين وغرضه، ففي حالة الموضوع الديني يتطابق الوعي مباشرة مع وعي الذات، بخلاف ما هو الحال أثناء علاقة الوعي بالموضوعات الحسية، فالموضوع الحسي يكون خارج الإنسان في حين الموضوع الديني يكون في الإنسان؛ لإنه موضوع داخلي.(ديب، ١٩٩٤، ص١٩٣)

إن تميز الإنسان عن الحيوان يؤكد لنا أن ماهية الإنسان هي أساس الدين وموضوعه، وبالتالي فماهيته ليست متناهية، لإن الدين لامتناه، وصفات الإله هي نفسها صفات الإنسان، وهذا يعني أن الإنسان هنا هو من أضفى صفاته إلى صفات موجود آخر خلقه الإنسان نتيجة وعيه وتفكيره المتخيل، فموضوع الدين يتحدد بالوعي الإنساني (وعي النوع)، باعتبار أن وعي النوع هو سمة الوجود الإنساني بعكس الحيوان الذي لا يعي نوعه.

ثم يرى فويرباخ إذا كان موضوع الدين يتحدد بالوعي الإنساني (بنمط وجوده أو ماهيته)، فإن ماهية الإنسان تتحدد بقوى عليا هي: (العقل، الإرادة، القلب)، وكون الإنسان لا يستطيع تحقيق الخير والحق والحب، ذهب ليسقط هذه الصفات أو الكمالات على إله خلقه الإنسان بنفسه (بدوي، د. ت: ج٢، ص٢١٣)، فهذه الصفات التي عزاها إلى الله، هي كمالات الإنسان العليا التي تشكل ماهيته، فقوة موضوع الإرادة هي الإرادة ذاتا، وقوة موضوع العقل هو العقل ذاته، وقوة موضوع الشعور هو الشعور ذاته، والشعور هو أساس الدين، والله ليس سوى ماهية الشعور، والشعور هو أقصى قوى الإنسان الداخلية التي انفصلت عنه واستقلت، فبدت للإنسان موجوداً آخراً تسيطر عليه بقوة، إن هذه القوة الداخلية هي إلهك، وهذا يعني أن كل ماعبدته الديانات السابقة وما كان يعبد بوصفه إلهاً، ما هو إلا شيئاً إنسانياً، ومن ثمة فإن التناقض ما بين الله والإنسان ليس سوى وهماً؛ لإن الوجود الإلهي ليس شيئاً عدا طبيعة الإنسان وماهيته. (خليفة، ٢٠٠٩، ص١٣٣)

يعتقد فويرباخ أن الجوهر الأعمق للدين يتكون كلما زادت بشرية الإله، لإن ذلك سيؤدي إلى تعاظم الفارق بين الإله والإنسان، فمن أجل إثراء الإله يجب أن يكون الإنسان فقيراً، وإذا كان الإله كل شيء، فينبغي على الإنسان أن يكون لاشيء؛ لإن كل ما يأخذه من نفسه لا يضيع، فهو قد حافظ عليه في الإله، وما دام الإنسان قد امتلك كينونته في الإله، فليس عليه أن يمتلكها في ذاته ولذاته، على سبيل المثال عندما ترى الرهبان وهم يقمعون الحب الجنسي في ذواتهم، فمن أجل تلك المسألة كان لهم في العذراء مريم صورة المرأة السماوية، صورة الحب، وكلما كانت أمرأة مثالية، كلما ازدادت سهولة إمكانيتهم بأن يستغنوا عن المرأة التي

هي من لحم ودم، وبالتالي فكلما زاد إنكار الإنسان للحسي، كلما ازدادت حسية الإله الذي يضحى لأجله بذلك، وكل ما يضحى للإله هو شيء عزيز ومسر لله، فالذي يسر الإنسان يسر الله أيضاً، وهكذا نرى العبرانيون عندما قدموا نذورهم من الحيوانات، فهم قدموا الأكثر قيمة عندهم تلك التي كانوا يأكلوها، فهي أيضاً طعام الإله، وهكذا فإن إنكار الحسية يجلب السرور إلى الإله، وهذا يعني أن الإنسان يؤكد في الإله ما ينفيه في ذاته. (خليفة، ٢٠٠٩، ص٧٨-٧٩)

تجدر الإشارة أن هناك رؤية لعالم الإجتماع دوركهايم تشبه رؤية فويرباخ عن المسيحية، باعتبارها أكثر الأديان توافقاً وقرباً من حياة البشر، إذ يرى دوركهايم أن إله المسيحية يتكون من عناصر إنسانية، فالله عند المسيحية إنساناً ليس بشكله المادي فقط، وإنما بالأفكار والعواطف، لذلك فالمسيحية هي أول دين صور الله على أنه إنسان يلتقي فيه الجانبان اللاهوتي والناسوتي. (نصراوي، ٢٠١٦، ص١٣٩)

إن نقودات فويرباخ على الديانة المسيحية، جعلته متهماً لهذه الديانة، فلم يسلم من هجوم أتباعها عليه، كوصفه بأنه يهاجم الدين المسيحي، او أنه ملحداً، ولكن كان هناك رد لفويرباخ على هذه الإتهامات، إذ أعلن أنه لم يقل شيئاً، وإنما الدين هو من تحدث عن نفسه وكشف عن ذاته، فرأى فويرباخ " إنه الدين الذي يؤله الإنسان في حين ينكره اللاهوت. إنه الدين، وليس فويرباخ، الذي يقول بأن الله هو الإنسان الشخص المنفصل عن الذات والمتخارج في العالم. وإن الإنسان هو الله بعد أن دفع الإنسان بذاته خارجاً عنه مغترباً عن نفسه في آخر. إنه الدين وليس فويرباخ الذي ينكر الله الذي ليس هو الإنسان...لم يفعل فويرباخ أكثر من إذاعته للسر المسيحي والكشف عن زيف اللاهوتيين وخداعهم وتناقضاتهم (حنفي، ٢٠٠٤، ص٣١٢)

رابعاً: الإغتراب الديني عند فويرباخ

يعد مفهوم الإغتراب من المفاهيم الأكثر تداولاً في الفلسفة الحديثة، فهو جزء لا يتجزأ من إنسانية الفرد في حياته، كونه يترك أثراً سلبياً من الصعب الفكاك منه، وعليه عرف الإغتراب بأنه "ذلك الذي لا يمتلك ذاته". (الشاروني، ١٩٧٩، ص٦٩)

في حين نجد شاخت يعرفه هو مصادرة حقوق الملكية المتعلقة بالأفراد أو يعني نقل ملكية شيء ما إلى شخص آخر، والقيام بذلك يعني حرفياً جعل شيء ما منتمياً إلى شخص آخر.(شاخت، ١٩٨٠، ص٦٣-٦٤) وورد الإغتراب في معجم جميل صليبا بمعنى الضياع، "أي عندما يفقد حريته" (صليبا١٩٨٢، ص٧٦٥) ، ويصبح مصهوراً في مجتمع لايعترف له بأي استقلال ذاتي أما الفيلسوف وعالم النفس أريك فروم يرى في كتابه: (المجتمع السوي)

المقصود بالإغتراب هو نمط من التجربة، يعيش فيها الإنسان نفسه كغريب، أي أنه اصبح غريباً عن نفسه. (حماد، ٢٠٠٥، ص ٥٩)

إذن فالإغتراب كما بين عند أغلب الفلاسفة وعلماء النفس والإجتماع، هو تنازل الفرد عن ذاته من أجل الآخر، فيحدث إنكساراً أو لاتوازنا. تحتل مشكلة الاغتراب مكاناً متميزاً في الفلسفة الألمانية، وإن كان لها بذور سابقاً سواء في نظرية أفلاطون عن الروح الذي يهن في الجسد البشري، وفي التصور الأفلاطوني عن الأشياء باعتبار الاغتراب شكلاً فاسداً لعالم المثل، وفي النظرية الأفلوطينية عن الفيض، وفي التعبير المسيحي لأسطورة الخطيئة الأولى، وما إلى ذلك، إلا أن فكرة الاغتراب لم تأخذ مساحتها الكبيرة سوى في الأزمنة الحديثة . (اويزرمان، ١٩٧٤، ص١٧٥)

ويمكن القول أن فويرباخ هو أكثر الفلاسفة الذين إهتموا بموضوع الإغتراب، فقد أولاه عناية كبيرة، لاسيما وهو يبحث في مجال الدين معتقداً أن الإله الحقيقي الذي يجب أن يعبد هو الإنسان، ولكنه فضل إله غيره من صنع خياله، فتنازل عن كمالاته كلها وعزاها لهذا الإله، ولذلك يعتقد فويرباخ أن الإغتراب الديني الذي هو اساس كل إغتراب يتم الكشف عنه بواسطة بحث معمق في فلسفة الدين، الإغتراب هو إنقلاب الأنا إلى آخر، ويحدث هذا الإنقلاب بفعل تحول الإنسان إلى الله، قبل أن يتحول الإغتراب إلى إجتماعي وإغتراب إقتصادي وإغتراب سياسي، ...إلخ، فالإغتراب الديني عند هذا الفيلسوف هو الأسهل والأكثر سرعة ومباشرة من أي إغتراب آخر، لإنه عندما يحدث زلزال في كيان البشر أو خلل في وجوده أو خوف، ظهر ذلك في اللجوء إلى الله كسند وتعويض. (حنفي، ١٩٧٩، ص٤٤)

نستنتج من ذلك أن الإغتراب الديني هو إنصهار الذات الإنسانية بالذات الإلهية، فهو اللحظة التي يحقق فيها الانعكاس المقلوب إحتلاله الكلي للوعي، فعلاقة الإنسان مع ذاته ومع العالم المحيط به لم تعد في صورتها الصحيحة، بل صورة مزيفة ومقلوبة، ولا يمكن للإنسان اكتشاف واقعه المادي القائم ،إلا تعويضاً وهمياً وسلواناً يبرر بؤسه وحرمانه، بالتالي فأن الاغتراب الديني هو نوع من تقديم الوهم على الواقع بديلا من الإخفاق المادي، ويستهدف بالنتيجة إجبار الوعي على الاستسلام والقبول بهذا الواقع حتى وأن كان يصب بالمرارة على الفرد. (نبي ، ٢٠٠٦ ، ص١٨٤)

ويرى فويرباخ أن اسقاط صفات الإنسان الخيرة على الله هو الإغتراب باوسع معانيه، والحقيقة أن مفهوم الطبيعة الإلهية لا يعدو أن يكون مفهوماً عن طبيعة الإنسان، والمشكلة تكمن في خلق الإنسان لله، فجعله وجوداً متميزاً عنه وأوجب احترامه وتقديسه، مما أدى بالإنسان على عدم التطلع في الحصول على تلك الصفات التي تنازل عنها إلى ذلك الوجود الآخر، وفي تنازله هذا ينفي حقيقته الجوهرية. (فويرباخ، ١٩٩٩، ص٢١)

نجد أن الإغتراب الديني عند فويرباخ منطلقا من الإنسان نفسه، بعكس ما كان عند هيجل، فأهمية فويرباخ بنزعته الإنسانية جاءت بإصلاح هرمية مفهوم الإغتراب، بدلاً من وقوفه على رأسه يقف على قدميه، أي بدل إغتراب الروح المطلق في الوجود المادي يكون إغتراب الوجود المادي في وسط إلهي صنعه من قيمه، وبذلك جعل فويرباخ هرمية الإغتراب أن تستعيد صوابها وأسسها الواقعية والإنسانية من أجل أن يكون الإغتراب قابلاً للفهم والإستعمال الصحيح في فهم الواقع والإنسان، وهذا يعني إعادة الفلسفة من (مملكة النفوس الميتة) إلى (مملكة النفوس الحية المجسدة)، بمعنى أن فويرباخ أراد إنزال الفلسفة من السماء إلى الواقع الإنساني، ولكي يحقق هذا الهدف يجب أن يتوفر فهم إنساني، وإستعمال لغة إنسانية، من أجل تخليص الإنسان من أفكار لاهوتية غرق فيها منذ القدم. (نصراوي، ٢٠١٦، ص١٧٤)

فهو قد خلق الله على صورته الجوهرية والمعلوم أن هناك تنافراً بين طبيعة الإنسان الفعلية وطبيعته الجوهرية أو المثالية، والطبيعة الجوهرية أو المثالية هي التي تنعكس في فكرة الله، وبالتالي أصبح الله وجوداً داخل الإنسان، وعلاوة على ذلك بدا التمايز الذي خلقه الإنسان موجوداً يستحق الإحترام والتبجيل، وهذا يعني أن الإنسان لا يحق له التطلع إلى الحصول على الصفات التي عزاها إلى ذلك الوجود الآخر. (عطية، ٢٠١٩، ص٢٧٠)

إن موقف فويرباخ هذا يشابه موقف عالم النفس (سيغموند فرويد)، حتى أن أحمد عبد الحليم عطية يقول عن فرويد " هنا يبدو كأن فويرباخ هو الذي يتحدث"، (فويرباخ، ١٩٩٩، ص٢٥) فيرى فرويد أن الأفكار الدينية تنبع من نفس الحاجة التي تنبع منها سائر إنجازات الحضارة، أي أنسنة الطبيعة، فالحاجة التي تحاصره تجعله يشعر نتيجة خوفه وحيرته إلى الحاجة لقوة خارقة مختلفة عليه، إذ لايوجد خيار له غير التفكير بهذا الأمر، بل من شبه الفطري أن يسقط ماهيته الخاصة على العالم الخارجي، فيظهر الدين أقرب ما يكون إلى إغتراب الصفات الإنسانية التي يخلعها الإنسان على قوة الطبيعة، ويؤكد فرويد رؤيته هذه في الإشارة للآخرين الذين سبقوه، إذ يقول" هل قلت شيئاً غير ما قاله رجال آخرون أهلاً للثقة أكثر مني، غير أن ما قالوه تم بصورة أكمل وأقوى وأفصح وأبلغ؟". (فويرباخ، ١٩٩٩، ص٢٥)

إن التدليل الفرويدي للدين يكشف أن فويرباخ تعامل مع الموقف الديني بصورة نفسية، وكأنه عالم نفسي سبق فرويد في تشخيصه للمسألة الدينية، فالإغتراب الديني هو إهتزاز نفسي يصيب الكيان الإنساني بسبب الحاجة لقوة خارقة أمام ضعف الإنسان في واقعه الذي يجلب له الحيرة والخوف، فينكفئ الإنسان على نفسه ويبدأ بتخيل أوهام، مقتنعاً أنها عزاءاً وقوة في هذا العالم أو بعده، لا سيما إن الإنسان قد ورث هذه الأفكار من السابقين، منذ

التفكير البدائي ووصولاً إلى عصر الكنيسة، إلا أن الإلتفاتة التي أريد فيها إنتصار الطبيعة على أفكار ما بعد الطبيعة هي في العصر الحديث، العصر الذي صرح فيه الكثير الخلاص من أوهام الماضي وتحطيم القيود الدينية، وكان فويرباخ أهمهم في ذلك العصر.

يرى حسن حنفي أن فويرباخ يهدف إلى إيجاد علم للأمراض أو علم وظائف الأعضاء كمقدمة للعودة إلى طبائع الأشياء، عن طريق شعار سقراط "إعرف نفسك بنفسك"، فالإغتراب مرض نفسي كما يصفه علم النفس، والقضاء عليه هو قضاء على هذا المرض وجلب للشفاء. (حنفي، ٠٠٤، ص٣٠٧) ويقول فويرباخ في تفسيرات الأنثروبولوجية القائمة على التحليل النفسي" إن الإنسان حين يجسد صفاته البشرية في صورة آلهة، فإنه ينكر على نفسه الإشباع الحقيقي، وينغمس بدلاً من ذلك في إشباع خيالي. ذلك أن العقائد الجامدة هي أمان قلبية تحققت، والإعتقاد في الله ينبع من ميل الإنسان إلى مقارنة الكائن غير الكامل بالفكرة العامة للكمال الإنساني. ومن هنا فالراهب أو الراهبة اللذان يمتنعان عن التمتع بالجنس يجدان بديلاً لهذا في العالم المثالي".(عطية، سنة٢٠١٩، ص٢٧٦)

وعلى هذا النحو فإن الإغتراب الديني هو إسقاط وهمي من قبل الإنسان لوجوده كإنسان، وللوجود الإلهي. (هيرقيه، ٢٠٠٥، ص١٦) والدين وعي الإنسان الأول وأن كان بصورة غير مباشرة، فهو يسبق الفلسفة في تاريخ كل الإنسانية، والإنسان يقوم بإسقاط جوهره خارجه قبل أن يستعيده في ذاته، ففي أول الأمر يكون الإنسان عرضة كينونته الخاصة على شكل كينونة أخرى (الدين)، فالدين يكون كينونة الإنسانية في طفولتها، لكن الطفل يرى جوهره، أي الإنسان خارجه، والإنسان عندما يكون طفلاً يكون موضوعاً لذاته على شكل إنسان آخر. (آفرون، ١٩٨١، ص٧٧) من جعل فويرباخ مقتنعاً بحقيقة أن الدين هو إغتراب إنساني؛ هي التناقضات التي إكتشفها في الدين، وبالتالي إنصرف في تفكيره من زاوية مادية رافضاً بذلك كل وجود روحي بعيداً عن الإنطباع الحسي، ومن هذه التناقضات هو وجود الله، مثل براهين وجود الله قد تم إعلانها بما يتعارض مع الطبيعة الإنسانية للدين، وكذلك فكرة وحي الإله هي فكرة متناقضة، فالوحي هو شهادة الإله على وجوده الحسي التجريبي، فالإله الذي يتواجد دون أن يكشف ذاته هو مجرد إله تجريدي تخيلي ذاتي، ومن أهم التناقضات الأخرى التي وجدها في الديانة المسيحية هو ربطها بين الإله الذي يمتلك كينونة بشرية، وفي الوقت نفسه تعتبر كينونته فوق بشرية، وعلى هذا النحو وبعد كشف التناقضات في الدين يبين فويرباخ التغرب البشري، معتبراً بذلك أن الديانة المسيحية سبباً رئيساً في سلب ذات الفرد ونفيها، فالدين عند هذا الفيلسوف يجعل الفرد يعيش صراعاً وانفصالاً عن ذاته، فيكون سبباً معيقاً لحرية الإنسان وإمكانياته الأساسية مثل "الإرادة، العقل، الأخلاق". (الزهراء، ٢٠٢٠، ص٣٣)

إذن محدودات الكائن الإلهي هي نفسها محدودات الكائن البشري، ولكن البشر هم من خلقوا الإله، وأضفوا له هذه الصفات، فاغتربوا عن واقعهم وانفصلوا عنه، فوجب على الإنسان أن يكون فقيراً لكي يغني الله، ويكون ضعيفاً ليزداد الله قوة، ولكي يكون الله كل شيء، على الإنسان أن يكون لاشيء، وكلما كان الله أكثر ذاتية وإنسانية، أفقد الإنسان من ذاتيته وإنسانيته، فهذه المحمولات التي أسقطها الإنسان عن نفسه وأحالها لوجود آخر هي من كونت الإغتراب، فاصبح الإنسان عرضة للتناقض مع ماهيته النوعية، إلا أن فويرباخ بدا غير متشائم؛ لإنه مؤمن بأن الإنسان سيستعيد ذاته من جديد، مثل الحركة الشريانية التي في الجسم تدفع بالدم نحو الأطراف، ثم تعيده الحركة الوريدية، كذلك في الدين، في الإنقباض الديني يدفع الإنسان من ذاته ماهيته الخاصة، يطرد ذاته، يرمي ذاته بذاته، في الإنبساط الديني يستعيد في قلبه الماهية التي قذفها.(ديب، وفويرباخ، ١٩٩٤، ص١٩٤)

ففلسفة فويرباخ مقتنعة إذا استعاد الإنسان مادته التي خلعها عن ذاته واعطاها لغيره، فإنه ستظهر النزعة الإنسانية الحقيقية . (كالفير، ١٩٥٩، ص٣٢٠)

نستطيع القول أن الرؤية الفويرباخية للدين تبين إن الله بالنسبة للإنسان روحه ونفسه، وإن كمالات الإله هي كنوز الإنسان التي لم يكتشفها بعد، فحين يدرك الإنسان أن الإله من صنع مخيلته، يسترد ذاته الحقيقية مع كنوزها، فالإنسان الذي يؤمن بإله مفارق ومتمايز عنه لا يدرك أن وعيه بهذا الإله هو وعيه بذاته التي قذفها خارجاً عنه، أي يعي ذاته بنحو غير مباشر. ولذلك يقتنع فويرباخ بنكران الوجود الإلهي بوصفه الفكرة المطلقة، فهو ليس إلا طبيعة الإنسان وماهيته، وليس على الإنسان أن يعبد وجوداً آخراً خلقه بنفسه، وإنما عليه أن يعي ذاته التي تحوز كل الكمالات العليا، هذه الرؤية للدين جعلت كارل ماركس أن يطلق على فويرباخ "أعرف عصره". (خليفة، ٢٠٠٩، ص١٢٥)

خامساً: أنسنة الإله عند فويرباخ

لقد اراد فويرباخ أن يقدم دليلاً من خلال عبارات وأقوال (مارتن لوثر)، من أن الدين يتجه نحو الإنسان ويتخذ من سعادته هدفاً ومقصداً له، فالإله بالنهاية يمثل مشاعر وأفكار الإنسان الداخلية، كونها تعبر عن أحلام وأماني الإنسان.(فويرباخ، ١٩٩٩، ص٢٣) ونلاحظ في كتابه: "جوهر الإيمان بحسب مارتن لوثر" معتقداً أن آراء لوثر الدينية تبين لنا عدم وجود فرق بين المحمولات التي تعزى للإله والمحمولات التي تعزى للإنسان، وهذا يعني أن الموقف الناكر للإله جاء معتمداً من خلال تفسيره لأقوال مارتن لوثر، وبذلك يعتقد فويرباخ أن الجوهر الموضوعي للدين المسيحي ليس سوى جوهر المشاعر الإنسانية. (فويرباخ، ٢٠١٧، ص٨٤.٨٥)

وعلى هذا النحو فإن فويرباخ يحيل الدين إلى الإنسان باعتباره هو الإله الذي ينبغي أن يعبد، لإن كل تصورات الدين للإله هي تصورات إنسانية، لا سيما الدين المسيحي الذي إعطى الصفة الإنسانية للإله، ولذلك أصر فويرباخ على هدم اللاهوت التقليدي وابداله بالدين الأنثروبولوجي. فيبين فويرباخ أن كل الموجودات هي أفكار من صنع عقل البشر وخيالهم، فالعلاقة بين الإنسان والإله لا تخرج عن كونها علاقة الإنسان مع ذاته، أو علاقته مع الطبيعة أو غيره من البشر؛ لإن موضوع الدين هو صورة الإنسان لا الإله المفارق الخارق. (النصراوي، ٢٠١٦، ص١٤٥-١٤٦)

إن فلسفة فويرباخ الأنثروبولوجية لا تضع المتناهي في اللامتناهي، بل هي محاولة لرد اللامتناهي إلى المتناهي، فالله والمطلق ليسا بداية الفلسفة عنده، وإنما الموجود المتناهي الواقعي، بسبب إستحالة تصور اللامتناهي بدون المتناهي، وإذا انتقلنا من المجرد إلى العيني أو من المثالي إلى الواقعي، سيكون انتقالنا مقلوب وعليه يجب تصحيحه.(خليفة، ٢٠٠٩، ص١١٥)، لم يكن الدين المسيحي وحده من حمل الله صفات إنسانية، وإنما هناك ديانات قديمة قد اقدمت على هذا الفعل أيضاً، وهذا ما بينه فويرباخ عندما أخذ نصوصاً قديمة عن الله، فأعاد تحليلها تحليلاً نفسياً وجودياً من أجل الكشف عن المضمون الإنساني لهذه النصوص، فوجد أن الثيولوجيا في تاريخها الطويل أنثروبولوجيا، وبالتالي فإن كل ما وجد من ديانات هي أفكار وإسقاطات إنسانية ولذلك يقول" لا يوجد فرق البتة بين المحمولات التي تعزى للإله والمحمولات التي تعزى للإنسان".(فويرباخ، ، ٢٠١٧، ص٨٥) ويقول أيضاً عن تخيل الإنسان للإله" الإنسان يضع الإله أمامه كنقيض لنفسه فالإله ليس ماهو الإنسان . الإنسان ليس ماهو الإله، الإله لا نهائي، الإنسان كينونة محدودة؛ الإله كامل، الإنسان غير كامل؛ الإله أبدي، الإنسان زمني؛ الإله قادر على كل شيء، الإنسان ضعيف؛ الإله قدوس، الإنسان خاطئ".(فويرباخ، ٢٠١٦، ص٨٩)

لذلك فإن هذا التفريق الذي وضعه الإنسان، ماهو إلا تفريق بينه وبين كينونته الخاصة، فقناعة الإنسان بعدم كماله جعله أن يعطي كمالات لله غير نهائية وليست محدودة، فالوهم الإنساني خلق إله من أجل أن يشبع ذاته، وعلى هذا يرى فيورباخ إن أردنا أن نصف الدين بصورة صحيحة، نصفه بأنه موقفاً إنسانياً يرجع للذات ما سلب منها من قبل، ويعيد للإنسان أخص خصائصه؛ لإن الدين الإنساني دين واعي ذاته، ويفهم نفسه بطريقة عقلانية، بعكس مذهب التوحيد الذي يقوم على صراع بين الرأس والقلب، ومذهب الحلولية الذي يقوم بإلغاء هذا الصراع، أما الدين الإنساني فإنه يقوم على علاقة بين القلب والرأس؛ "الدين الإنساني هو القلب مرفوعاً إلى مستوى العقل، وهو يعبر فقط في الرأس، وبطريقة عقلانية عما يقوله القلب بطريقته الخاصة، أي عن نفي الله".(آفرون، ١٩٨١، ص٩٦)

ومن هنا نستنتج إن الإله لا يوجد بمعزل عن الإنسان؛ لإن عقل الإنسان من أوجده، ولكن تم إيجاده من خلال خلق صورة مناقضة لماهيته، وبالتالي صهر الإنسان نفسه أمام ذاته التي غربها بعيداً عنه فراح يعبدها ويكن لها جليل الإحترام، فأدرك فويرباخ هذا الأمر وحاول أن يكشف الذات الإلهية التي صورت عن طريق أنثروبولوجي لحظة عجز الإنسان.

إن اختزال اللاهوت لصالح الأنثروبولوجيا، هو محاولة لإنقاذ الجانب الإنساني للدين، بمعنى الحد من جوهر الإله لصالح الكينونة البشرية، ولهذا يعلق فويرباخ على لوثر بأن المسيحية لها مظهراً لاهوتياً في حين أن جوهرها أنثروبولوجي، فلا أساس للقول إن الإله يتمايز عن الإنسان، (فويرباخ، ٢٠١٧، ص٨٨-٨٩)، وعليه فإن الحقيقة الصادقة بدون تناقض، وهي فعل مستقل بالذات البشرية، وينقلنا هذا الفعل إلى عصر جديد، تكون روح هذا العصر هو المذهب الأنثروبولوجي، في هذا المذهب تتحقق وحدة مباشرة مع أنفسنا، فتتلاشى الثنائية بين النظري والعملي، بين المجرد والعيني، بين الله والإنسان، فلا يكون الروح المطلق في رؤوسنا، والإنسان في قلوبنا، بل يكون الإنسان فقط، فهو لغة الفلسفة الجديدة ومبدؤها، في هذا العصر يكون الإنسان هو المفكر الذي يعرف نفسه كماهية واعية بذاتها للطبيعة والتاريخ والدولة والدين. (خليفة ، ٢٠٠٩، ص١٢٨)

إن العقل الديني الذي يبلغ أقصى حالات الوعي بذاته يستدرك أن الإنسان هو الإله الحقيقي الوحيد، وما إن أدرك الإنسان دلالة الدين الحقيقية، فإنه يستطيع الإستغناء عن الإله أو عن الروح المطلق، ويكرس نفسه لتحقيق إمكانيات وجوده الجوهري الخاص، فالسبب الذي يجعله يؤمن بإله لامتناه قائم بذاته؛ هو أن كمالات الطبيعة الإنسانية محفوفة بالمكاره نتيجة للظروف العقلية في الطبيعة والمجتمع، فيندفع الإنسان إلى تقسيم وجوده إلى فرد تجريبي وإلى الحد المثالي الأقصى، هذا الحد هو من يدفع العقل إلى الحنين إلى حالة أكمل، متهيئاً ماهية مثالية تتجسد على هيئة إله لامتناه. فإذا ما إكتشف الإنسان هذه الماهية على حقيقتها، على أنها تصور إنساني وهمي، فإنه سيدرك أن هذه الماهية هي عائدة للإنسان ذاته، وبالتالي فإن الإله الوحيد هو الإنسان وليس شيئاً آخراً، فالدين الفويرباخي، هو دين إنساني خالص يخلو من إله مفارق متمايز.

يتبادر في ذهننا سؤال، لماذا إنطلق فويرباخ بنقده للدين من خلال الديانة المسيحية؟ قد تكون الإجابة واضحة وهي أن المجتمع الأوربي يدين بالديانة المسيحية، فكان لزاماً على هذا الفيلسوف أن ينفذ إلى هذه الديانة، ومن ثم يطلق التعميمات على الديانات الأخرى، فضلاً عن معرفته الواسعة عن الديانة المسيحية التي وضحت فيها الصفة الإنسانية للإله، ولعل صيرورة الله إلى إنسان المسيح، هي من تكشف بوضوح عن ماهية الدين، لإن الدين المسيحي هو الدين الذي يتألم فيه الإله ويشعر مثلما يشعر البشر.

ولكن يرى فويرباخ أن الديانة المسيحية ترفض أن تكون ماهيتها هي ماهية الإنسان، فهي ترى أن هناك فوارق مابين الإله والإنسان، على سبيل المثال يرى (مارتن لوثر) إن بين الإله والبشر فرق كبير، فالإله عادل، قدوس، صدوق، وفي الخلاصة الإله هو كل ماهو خير، في حين الإنسان ظالم مخادع ممتلئ بالرذيلة، الخطيئة، والفساد، الإله ممتلئ بالنعمة، والإنسان ممتلئ بالعار، وهو تحت غضب الإله، فمقابل كل نقص في الإنسان نجد كمالاً في الإله.(فويرباخ، ٢٠١٧، ص١٣٠-١٣١)

وعلى ذلك يرى فويرباخ بأن هذه الديانة تكمن في ضعف الإنسان ونقصه، فلم تعد المسيحية مجدية لنا، إذ يقول "إن المسيحية إختفت منذ زمن طويل، ليس فقط في العقل، وإنما أيضاً في الحياة الإنسانية، وإنها لم تعد سوى فكرة ثابتة، تجد نفسها في التناقض الصارخ مع شركاتنا للتأمين، مع خطوط سككنا الحديدية وقطاراتنا، مع معارض رسومنا ومتاحف تماثيلنا، مع مدارسنا العسكرية والصناعية، مع مسارحنا ومكتبات التاريخ الطبيعي عندنا" .(ديب، ١٩٩٤، ص١٩٩)

ينتهي فويرباخ من هذا القول إلى إعتبار المهمة الرئيسية للفكر الحديث هي تأنيس الإله، (أي إلغاء فكرة الله المفارق والمستقل عن الإنسان، والعودة إلى الحقيقة المفترض بها أن تكون منذ البداية، وهي أن الله هو الإنسان نفسه)، ويكون هذا التبدل من خلال إجراء عملية جراحية أخلاقية نستأصل منها فكرة الله، ونستبقي فقط الموقف الديني، من حيث إنه يركز عقولنا على كمالات الطبيعة الإنسانية، وبهذا يكون فويرباخ رائداً في الدعوة إلى دين إنساني واجتماعي خالص، يخلو من فكرة الله المتعالي، هذا الدين الذي يدعو إليه يعمل على تكريس المرء نفسه لتحسين العلاقات الشخصية المتبادلة بين الناس على أسس علاقة (الأنا والأنت) التي تقوم على الدافع الباطني الخالص من الحب المتبادل والمشاركة في طبيعة جوهرية واحدة. (كولينز، ١٩٩٨، ص٣٤٣-٣٤٤)

الخاتمة

اتضح لنا في هذا البحث إن نقد فويرباخ لهيجل لم يخفي ظل إستاذه الذي كان حاضرا في مواقف فويرباخ الدينية، لاسيما في كتابات هيجل المبكرة، التي تؤكد على الوعي المسلوب في الإنسانية، وقد رأى بأن الحقيقة لا تكون في الفكر المجرد، بل تنبثق من الإنسان وما تمدنا الحواس من معارف، فالفلسفة التأملية لاجدوى منها، كونها لا تقدم نفعاً أو شيئاً يخدمنا في حياتنا، وإنما تشارك في ترسيخ الأوهام التي يقدمها لنا اللاهوت، وعليه فإن العلم الوحيد والصحيح هو الطبيعة، وبهذا يقلب فويرباخ المعادلة الهيجلية التي تقدم المثالي على المادي آملاً تحرير الإنسان من النزعة المثالية والسلطة اللاهوتية.

لقد أكد فويرباخ على وهمية الدين الذي نعرفه؛ لإن هذا الدين يسلب الجوهر الإنساني، فبدلاً من الإهتمام بالمصير الإنساني نجده يقوم على الخوارق مبيناً بذلك عجز الإنسان أمام قوة جبارة تتحكم بكل شيء، فيوضح فويرباخ أن هناك تناقض في موضوع الله، فالله الذي يعرفه الإنسان متميزاً ومفارقاً، وفي الوقت نفسه يمتلك كل الصفات الإنسانية التي تمكننا من معرفته، فكيف هو إلهاً معزولاً خفياً ونستطيع معرفته؟ وبالتالي فإن التناقض هذا يخرج بنتيجة أن فكرة الإنسان عن الإله هي نفسها فكرته عن ذاته، فالله هو مظهر من مظاهر الطبيعة الداخلية للإنسان، أي إنه الإنسان نفسه.

على الرغم من نقد فويرباخ لكل الأديان، إلا أننا نجده يخص المسيحية بنقد أكبر، كونها الدين المعبر عن إسقاط الصفات الإنسانية في الإله، وهذا يعني ان المسيحية هي التعبير الحقيقي لإرتباط الإنسان بنفسه لكنها لا تعترف بذلك، فالإله هو كينونة الإنسان الخاصة، إذن فالأديان كلها وحتى المسيحية هي أديان وهمية، فلا يوجد إلهاً معزولاً عنا، وإنما يوجد الإنسان فقط وهو الأحق في أن يعبد، فسر الثيولوجيا هو الأنثروبولوجيا.

إن الإغتراب الديني يحدث نتيجة توهم الإنسان بوجود إله يمتاز عنه، فعندها تنصهر الذات الإنسانية بالذات الإلهية المزيفة، فتكون علاقة الإنسان مع ذاته ليست بصورتها الصحيحية، فيحدث الإنكسار والزلزال في الكيان الإنساني ويبحث عندها عن مبرر لبؤسه وحرمانه الذي خلقه بنفسه من خلال تقديم الوهم على الواقع. فموقف فويرباخ من الإغتراب الديني أشبه بموقف عالم النفس؛ لإنه قد أحال المسألة هذه إحالة سايكلوجية، لكون الإغتراب حسب رؤيته هو اهتزاز نفسي يصيب الإنسان، ومن ثم يدعو الإنسان إلى البحث عن قوة خارقة تعوض عجزه وضعف في واقعه الذي يعيشه، ولذلك عمل فويرباخ على خلاص الإنسان من الإغتراب باعتباره مرض نفسي يصيبه، ويكون الخلاص من الإغتراب هو المرحلة المهمة التي تهدم الدين أو اللاهوت التقليدي وإبداله بالدين الإنساني؛ لإنه يرى بأن كل الأفكار التي نعرفها عن الإله هي من صنع مخيلتنا، وإن علاقتنا مع الله لا تعدو عن كونها علاقة مع ذواتنا، وبذلك نجد أن فويرباخ رائداً في التأسيس لفلسفة جديدة تعني بالإنسان، الإنسان كمفكر وواعي لنفسه، مدركاً أنه الأولى بالعبادة والإله الوحيد لهذا الكون.

قائمة المصادر

١. إحسان الحيدري (٢٠١٣): فلسفة الدين في الفكر الغربي، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع.

٢. احمد عبد الحليم عطية (٢٠١٩): الإنسان في فلسفة فويرباخ، مؤسسة مجاز الثقافية للنشر والترجمة والتوزيع، القاهرة.

٣. أحمد عبد الحليم عطية (١٩٨٩): فلسفة فويرباخ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

٤. أوغست كورنر (١٩٧٥): ماركس وإنجلز،(حياتهما وأعمالهما)، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ج٤، ط١.

٥. ثيودور اويزرمان (١٩٧٤) : تطور الفكر الفلسفي، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت.
٦. جان إيف كالفير(١٩٥٩): تفكير كارل ماركس(نقد الدين والفلسفة)، ج١، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، دار اليقظة العربية، سوريا.
٧. جميل صليبا (١٩٨٢): المعجم الفلسفي، ج١، دار الكتاب اللبناني.
٨. جيمس كولينز (١٩٩٨): الله في الفلسفة الحديثة، ترجمة فؤاد كامل، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة.
٩. حبيب الشاروني(١٩٧٩): الإغتراب في الذات، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد١.
١٠. حسن حماد(٢٠٠٥): الإنسان المغترب عند أريك فروم، مكتبة دار الحكمة، القاهرة.
١١. حسن حنفي(١٩٧٩): الإغتراب، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد١.
١٢. حسن حنفي(٢٠٠٤): تطور الفكر الديني الغربي(الأسس والتطبيقات) ، دار الهادي، بيروت.
١٣. حنا ديب(١٩٩٤): هيجل وفويرباخ، دار أمواج للطباعة والنشر، بيروت، ط١.
١٤. دانيال هيرقيه(٢٠٠٥): سوسيولوجيا الدين، ترجمة درويش الحلوجي، القاهرة، ط١.
١٥. دشوش فاطمة الزهراء(٢٠٢٠): مفهوم الإغتراب في فلسفة فويرباخ، رسالة ماجستير في الفلسفة، اشراف مجكدود ربيعة، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة محمد بوضياف، سنة٢٠١٩.
١٦. ريتشارد شاخت (١٩٨٠) : الاغتراب ، ترجمة كامل يوسف حسين ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط١.
١٧. سربست نبي (٢٠٠٦): كارل ماركس مسالة الدين، قدم له نصر حامد ابو زيد.
١٨. عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، ج٢.
١٩. فريال حسن خليفة (٢٠٠٩): نقد فلسفة هيجل، (كيركجورد، فويرباخ، ماركس)، دار التونير بيروت.
٢٠. لودفيغ فويرباخ(١٩٩٩): أصل الدين، دراسة وترجمة أحمد عبد الحليم عطية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١.
٢١. لودفيغ فويرباخ (٢٠١٧): جوهر الإيمان بحسب مارتن لوثر، ترجمة جورج برشين، تقديم نبيل فياض، دار الرافدين.
٢٢. لودفيغ فويرباخ(٢٠١٦): جوهر المسيحية، ترجمة جورج برشين، تقديم وتعليق نبيل فياض، الرافدين.
٢٣. نادية أحمد النصراوي(٢٠١٦): فلسفة فويرباخ، (بين المادية والإنسانية)،دار الرافدين، لبنان.
٢٤. هنري آفرون (١٩٨١): لودفيغ فويرباخ، ترجمة ابراهيم العريس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١.